أدوات جمع البيانات: الملاحظة

تعتبر الملاحظة من الأدوات الأساسية والهامة لجمع البيانات خاصة في العلوم الاجتماعية، خاصة وأنّ علماء الأنثروبولوجيا هم الذين لفتوا الأنظار إلى أهمية هذه الأداة، عندما جمعوا عن طريق الملاحظات كثيرا من البيانات والمعلومات عن الشعوب البدائية. وهي وسيلة قديمة استخدمها الإنسان منذ القدم، وإن لم تأخذ الصبغة العلمية إلا في عصرنا الحديث. وهي أداة أساسية في معظم البحوث– حتى إذا لم يقصد الباحث استخداماه– فهي تدخل في دراسة أي ظاهرة تقريبا.

تستخدم أداة الملاحظة في بحوث الإعلام والاتصال لجمع البيانات وتحليلها. وهي تستخدم عادة في البحوث النوعية التي تهدف إلى فهم الظواهر الاجتماعية والثقافية والإعلامية والاتصالية من خلال التفاعلات المباشرة بين الأفراد أو المجموعات والتفاعل مع الوسائط الاتصالية المختلفة. ويستخدم الباحث أداة الملاحظة عندما يريد رصد سلوك أو تفاعلات معينة بين الأفراد في بيئتهم الطبيعية. ويمكن استخدام العديد من الأساليب للملاحظة، بما في ذلك الملاحظة المباشرة أو غير المباشرة وغيرها من الأنواع الأخرى. ولا يمكن للباحث أن يتحقق من جميع جوانب السلوك المراد دراستها عن طريق الملاحظة المباشرة، لذلك يجب على الباحث أن يكون مستعدًا لاستخدام أدوات متعددة لجمع البيانات وتحليلها. ومن المهم أيضًا تحديد المتغيرات المراد دراستها وتحديد ماهية البيانات التي يجب جمعها وكيفية تحليلها.

1. تعريف الملاحظة

يعرّف مرويس أنجرس الملاحظة في عين المكان على أنها تقنية مباشرة للتقصي العلمي، تسمح بملاحظة مجموعة ما بطريقة غير موجهة من أجل القيام عادة بسحب كيفي بهدف فهم المواقف والسلوكات.

ويعرّفها سوتيريوس سارانتاكوس على أنّها تقنية لجمع البيانات عن طريق المشاهدة بشكل رئيس. ويمكن أن تُستخدم تقنية الملاحظة وحدها لجمع البيانات أو بالتعاون مع غيرها من التقنيات. وعلى الرغم من أن الملاحظة تدرس الأشخاص، يمكنها أيضا أن تركز على الأشياء بصفتها مخرجات لفعل الإنسان وتصرفاته، أو بصفتها جزء من البيئة المادية.

ويرى بوب ماتيوز وليز روس أنّ الملاحظة هي مراقبة الأمور وهي تحدث، وهو ما يعطي انطباعا بأنها مهمة سهلة أو بسيطة كل البساطة. والواقع أنها أشد تعقيدا من ذلك، ولهذا يتعين علينا أن نتساءل: ما هذا الشيء

الذي نلاحظه؟ قد تكون الإجابة على هذا السؤال واضحة، ولكنها ليست بالضرورة سهلة. فأنت تراقب مراحل حدوث أي شيء تقوم ببحثه. فينبغي عليك أن تكون قادرا على أن تعرف متى تحدث هذه الأمور، وذلك لأنه سيتعين عليك تحديدها في سؤال بحثك وفي تعريفاتك الإجرائية.

ويعرفها سمير محمد حسين على أنّها أداة لجمع البيانات الأولية، ويقوم الباحث من خلالها بملاحظة سلوك المبحوثين وتصرفاتهم في المواقف التي يخضعها للدراسة، فضلا عن ملاحظة بعض الجوانب الوصفية الأخرى كالسن والجنس وغيرها من الصفات التي يسهل التعرف عليها وتسجيلها.

2. أنواع الملاحظة

تتخذ الملاحظة أشكالا عدة يختلف بعضها عن بعض في جوانب عديدة على الرغم من تشابهها بشكل عام. فهي تختلف في مدى مشاركة الملاحظ في ميدان الملاحظة، ومدى كون الملاحظة منظمة أو مقننة. وهذا التمييز يؤدي إلى وجود الأنواع الأساسية من الملاحظة كما يلخصها سوتيريوس سارانتاكوس في الإطار التالي:

الجدول رقم 1: أنواع الملاحظة

العامل	نوع الملاحظة
البنية	منظمة أو مبنية: تقتضي تصميما وتحكما شديدا. غير منظمة أو غير مبنية: تقتضي تصميما مرنًا ومن دون تحكم.
دور الملاحظ	مشارك: الملاحظ جزء من السياق. غير مشارك: الملاحظ ليس جزء من السياق.
الملاحظ	ملاحظة الذات: المراقب يلاحظ نفسه باستخدام الفيديو. ملاحظة الآخر: الملاحظ يراقب غيره.
التركيز	ملاحظة إنسانية: يلاحظ الناس وأنشطتهم. ملاحظة مادية: ملاحظة أشياء مادية وطبيعية.
السياق	ملاحظة طبيعية: ملاحظة في سياق طبيعي. ملاحظة مخبرية: ملاحظة في مختبرات.
التزام الملاحظ	ملاحظة نشطة: الملاحظ ملتزم بقضية الدراسة (من الناحية الفكرية وأحيانا شخصيا، يشارك ويدعم الهدف العام للدراسة). ملاحظة سلبية: الملاحظ غير ملتزم بقضية الدراسة.

عمق الدراسة	ملاحظة ساذجة: بسيطة وغير منظمة. ملاحظة علمية: منظمة ومبنية (مقيّدة).
هوية الملاحظ	ملاحظة مفتوحة: هوية الملاحظ معروفة. ملاحظة خفية: هوية الملاحظ غير معروفة.

المصدر: سوتيريوس، سارانتاكوس (2017). البحث الإجتماعي (ترجمة. فارع شحدة). بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. ص 394

3. مزايا الملاحظة وعيوبها

1.3. المزايا:

- توفر الملاحظة معلومات عندما لا تكون طرائق جمع البيانات الأخرى فاعلة، وتستخدم إجراء أقل تعقيدا وأقل استهلاكا للوقت في عملية اختيار الموضوع.
- توفر بيانات عندما لا يكون المبحوثين قادرين على تقديم معلومات أو راغبين في ذلك.
- تجرى في سياق طبيعي وتدرس الحوادث كما تتطور، وهذا ما يحدث في البحث النوعي بشكل خاص.
- توفر معلومات مباشرة من دون الاعتماد على تقارير الآخرين.
- تسمح بجمع نوعية واسعة ومتنوعة من المعلومات حتى لو كان يُعتقد أن هذه المعلومات غير ملائمة في وقت الدراسة. وينطبق هذا على الملاحظة بالمشاركة.
- غير مكلفة نسبيا.

2.3. العيوب:

- لا تُستخدم مع المجموعات الكبيرة أو لدراسة الحوادث المكثفة.
- لا تستطيع تقديم معلومات عن حوادث مستقبلية أو غير متوقعة.
- لا توفر بيانات تتعلق بدرجة تكرّر السلوك.
- لا تستطيع دراسة الاتجاهات والآراء مباشرة.
- لا تلائم دراسة المسائل الحساسة كالسلوك الجنسي والعنف الأسري.
- متعبة نسبيا وتستغرق وقتا طويلا.

- تتأثر بتحيز الباحث وميوله وتعتمد على طريقة إدراكه للأمور ومدى ذاكرته.
- يكون الملاحظ في أسلوب الملاحظة بالمشاركة جزء من الموقف موضوع الدراسة.
- لا تقدم إجراءات للتغلب على تحيّز الباحث واتجاهاته وآرائه.
- لا تسمح بإجراء تعميمات استقرائية للنتائج.

4. الخطوات المنهجية للملاحظة

اختلف الباحثون في الخطوات أو طرق أو كيفية القيام بالملاحظة، إذ يقترح كل من روجر ويمر وجوزيف دومينيك الخطوات التالية من أجل البناء المنهجي للملاحظة "الميدانية":

1- اختيار موقع البحث.
2- الحصول على منفذ (سبيل للدخول).
3- اختيار العينة.
4- جمع البيانات.
5- تحليل البيانات.
6- الخروج.

ويقترح سوتيريوس سارانتاكوس مجموعة من الخطوات من أجل القيام بالملاحظة وهي:

1- اختيار الموضوع وصوغه.
2- إجراءات اختيار العينة.
3- المُلاحِظ.
4- جمع البيانات.
5- التسجيل.
6- التحليل وكتابة تقرير البحث.

ويرى موريس أنجرس بأنّ عملية بناء الملاحظة تتم من خلال الخطوات التالية:

1- حصر عناصر الوسط الذي ستجرى فيه الملاحظة.

2- إعداد نظام لتسجيل المشاهدات.

3- التسجيلات الفعلية والتأملية.

4- المشاهدات.

5- المشاهدات المكملة.

6- تحضير عرض البحث على المجموعة.

وهناك من يقترح بعض الإجراءات العملية التي يجب على الباحث اتباعها عن استخدام أداة الملاحظة وهي:

1- تحديد المتغيرات المراد دراستها: يجب على الباحث تحديد المتغيرات التي يريد دراستها، والتي يمكن أن تكون سلوكية أو غير سلوكية، وتحديد ماهية البيانات التي يريد جمعها وكيفية تحليلها.

2- اختيار البيئة المناسبة: يجب على الباحث اختيار البيئة المناسبة لإجراء الملاحظة، والتي يمكن أن تكون مكان عام أو خاص، مثل المدرسة أو المنزل أو الحي الشعبي.

3- تحديد طريقة الملاحظة: يجب على الباحث تحديد طريقة الملاحظة التي سيستخدمها، والتي يمكن أن تكون الملاحظة المباشرة أو غير المباشرة، والملاحظة الهيكلية أو غير الهيكلية، والملاحظة المشاركة أو غير المشاركة.

4- تحضير الأدوات: يجب على الباحث تحضير الأدوات اللازمة للملاحظة، مثل الدفاتر والأقلام والكاميرا إذا كانت البيانات المراد جمعها تشمل الصور.

5- جمع البيانات: يجب على الباحث جمع البيانات بطريقة منهجية ودقيقة، والتي يمكن أن تستغرق فترة زمنية محددة، وعادة ما يجب على الباحث تسجيل البيانات المراد جمعها في دفتر الملاحظات.

6- تحليل البيانات: يجب على الباحث تحليل البيانات المراد دراستها، والتي يمكن أن تشمل التحليل النوعي أو الكمي، وتحويل البيانات المجمعة إلى معلومات مفيدة ومفهومة.

7- التحقق من صحة النتائج: يجب على الباحث التحقق من صحة النتائج التي تم الحصول عليها من خلال مراجعة البيانات وإعادة التحليل عند الحاجة، والتأكد من تكرار النتائج عند إجراء الملاحظة مرات متعددة.

8- الحفاظ على الخصوصية والأخلاقيات: يجب على الباحث الحفاظ على الخصوصية والأخلاقيات في إجراء الملاحظة، وعدم الإفصاح عن أي معلومات تخص المشاركين في الدراسة دون موافقتهم.

9- توثيق البحث: يجب على الباحث توثيق كافة الإجراءات التي تم اتخاذها في إجراء الملاحظة، وحفظ جميع الملفات والأدوات المستخدمة في الدراسة بشكل دقيق ومنهجي، وذلك لضمان قابلية التداول والاستخدام المستقبلي للدراسة.